بنية الخطب التوحيدية في نهج البلاغة دراسة في أسلوبية التركيب الخطبة الأولى مثالاً

الأستاذ المساعد الدكتور
حسن حميد الفياض
جامعة الكوفة- كلية التربية الأساسية

المقدمة

يعد كتاب نهج البلاغة أفضل أثر إسلامي ربط بين سمو الفن وعمق الدلالة، حتى برز شامخا في مبانيه، سيالا في معانيه، دقيقا في جمله وتراكيبه ومفرداته، مكتنزا في دلالته، محلقا عن أن يجارى في أسلوبه، ينحدر منه السيل ولا يرقى إليه الطير، فلا غرو أن يقال عنه ((دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين)).

لقد بُنيت خطب النهج بناء هندسيا محكما، مبتدئا بالاستهلال فالعرض فالختام، وقائما على ترابط دلالي دقيق ينم على وعي تام بأهمية الخطاب وأثره في المتلقي، على الرغم من أنّ كثيراً من الخطب جاءت مقطعة، أو اختار منها الشريف الرضي مقاطع قلّت أو كثُرت، غير أننا نلمس في مجملها إحكاماً في النسج والبناء، ولعلّه يتضح أكثر فيما جاءت مكتملة من الخطب، أو شُبه مكتملة.

وقد رصد البحث بنية الخطب التوحيدية مثالا لما عليه سائر الخطب من الإحكام في بنائها بما يمثل بعدا أسلوبيا جرى عليه كلام أمير المؤمنين(عليه السلام) للوصول إلى الغاية المتوخاة منها، وركّز القول في الخطبة الأولى من نهج البلاغة؛ كونها تتضح فيها معالم البنية من مقدمة فعرض فخاتمة، وهي بعدُ كاشفة عما سواها من خطب التوحيد.

وقد انتظم البحث في ثلاثة مباحث، تحدث أولها عن مقدمة الخطبة بما تحفل من قوة، وبما تتضمن من إشارات بيِّنة للمناسبة التي قيلت فيها الخطبة، ثم جاء بعده المبحث الثاني ليكشف عن أسلوب الإمام علي (عليه السلام) في عرضه للمضامين التي يتوخاها من خطبته. أما المبحث الثالث فقد تكفل ببيان بنية الختام لما لها من أهمية في

تركيز ما جاء في العرض من مضامين. ولا ريب في أن خاتمة البحث بينت الثمار المنتقاة منه.

لقد كان كتاب نهج البلاغة الأساس والبناء الذي قام عليه البحث، وقد رفدته بعض الشروح فضلا عن كتب اللغة وغيرها.

والحمد لله ولي الحمد.

المبحث الأول

المقدمة

لا ريب في أن الخطيب يحاول بما يملك من قوة الإقناع التأثير في سامعيه، وله في ذلك طرق عدّة، من أهمها تنظيم خطبته تنظيما دقيقا بمقدمة وعرض وختام، وقد جرت العادة في الخطابة الإسلامية أن يبدأ الخطيب بحمد الله والثناء عليه، تبرُّكا باسمه وتهيئة للسامعين لما سيلقيه عليهم، وعُدَّ ذلك من خصائص الخطابة الإسلامية، وعُدّت الخطبة التي تخلو من ذلك خطبة بتراء١.

وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام أبرز خطباء الإسلام بعد ابن عمه رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وجرت خطابته على النحو المعتاد من البدء بالتحميد والثناء على الله -سبحانه- والصلاة على النبي وآله (صلوات الله عليهم)، بيد أنها انمازت عن غيرها في أسلوبها وطريقة أدائها، فكانت مقدمة الخطبة عند الإمام عليه السلام تمهيداً للأفكار والموضوعات التي ينوي الحديث عنها، ولم تقتصر على الحمد والثناء على الله تبركًا بذكر اسمه، بل جمعت إلى ذلك ترابطًا دلاليًا مع بقية أجزاء الخطبة بإيجاد علائق أسلوبية ودلالية تجعل من المقدمة مفتاحًا لدخول المتلقي إلى أجواء الخطبة، وتلخيصًا لما يريد الإمام عليه السلام عرضه فيها، إنَّ ((الاستهلال – من الزاوية الفنية – تتضخم قيمته عندما يشكل تمهيداً للدخول في الموضوع الذي تتضمنُه الخطبة، أي: عندما يتجانس الاستهلال مع طبيعة الخطبة))٢ ، وهو ما يطلق عليه براعة الاستهلال٣. وسأحاول الحديث عن المقدمة في هذه الفقرة، تاركًا الحديث عن غيرها لما يأتي.

يبدأ استهلال الإمام عليه السلام لخطبته الأولى من قوله عليه السلام: ((الْحَمْدُ للهِ الَّذِيْ لَايَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُوْنَ ... وَوَتَّدَ بِالصُّخُوْرِ مَيَدَانَ أَرْضِه)٤ وهي تتضمن الإشارة إلى نوعين

من التوحيد هما: التوحيد الذاتي٥، والتوحيد الأفعالي٦، وقد جاءا بعد الافتتاح بالحمد بأربع مقاطع يحوي كل مقطع عدد من الفقَر، فكان المقطع الأول يكتمل في ثلاث فقر تجري على النحو الآتي: ((الْحَمْدُ لله الَّذِيْ لَايَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُوْنَ ، وَلَا يُحْصِيْ نَعْمَاؤُهُ الْعَادُّوْنَ، وَلَا يُؤَدِّيْ حَقَّهُ الْمُجْتَهِدُوْنَ))، وقد جاءت مرتبة على وفق نظام بديع يرسم خطّا بيانيا يبدأ بالأعم وينتهي بالأخص، فـ(القول) أعم من (العدّ)، وهو أعم من (الاجتهاد)، مع دقة عالية في مواءمة كل لفظة مع سياقها ضمن المحور الاستبدالي، فالقول مع المدح، والعدّ مع النعماء، والاجتهاد مع تأدية الحقّ، ((و قال بعضهم: قوله (عليه السلام): «الّذي لا يبلغ مدحته القائلون» إقرار بالعجز عن الحمد باللسان، و قوله (عليه السلام): «و لا يحصي نعماءه العادّون» اعتراف بالقصور عن الشكر بالجنان، و قوله (عليه السلام): «و لا يؤدّي حقّه المجتهدون» اعتراف بالقصور عن العمل بالأركان))٧.وهو ليس ببعيد عما ذكرت، فالحمد باللسان أعم من الشكر بالجنان، وأخص منهما العمل بالأركان.

أما المقطع الثاني فينتظم في فقرتين على النحو الآتي: ((الَّذِيْ لَا يُدْرِكُهُ بُعْدُ الْهِمَمِ، وَلَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطَنِ))، وهو يجري على نحو التعليل للمقطع الأول وبيان السبب في نفي القدرة عن بلوغ مدح الله، وإحصاء نعمائه، وأداء حقّه، وتظهر فيه القصدية واضحة مع بيان قدرة الإمام (عليه السلام) في اختيار الصياغة المناسبة بدقة ألفاظها وتحققها في سياقها، وقد ركّب هذا المقطع مع المقطع السابق من جمل فعلية مضارعة لتحمل دلالة النفي في الحال والاستقبال، وقد وجّهت دلالة الألفاظ في سياقها النفي إلى التأبيد، وليهيّئ المقطعان الدلالة للمقطع الثالث الذي جاء بتراكيب اسمية ليكوّن أربع فقَر بأربع جمل اسمية على النحو الآتي: ((الَّذِيْ لَيْسَ لِصِفَتِهِ حَدٌّ مَحْدُوْدٌ، وَلَا نَعْتٌ مَوْجُوْدٌ، وَلَا وَقْتٌ مَعْدُوْدٌ، وَلَا أَجَلٌ مَمْدُوْدٌ))، للدلالة القاطعة على التوحيد الذاتي بنفي الصفات عن الذات المقدسة من خلال دلالة الجمل الاسمية على ثبوت النفي ودوامه، وهو يمثل تعليلا للمقطع السابق.

أما المقطع الرابع في مقدمة الخطبة فجاء بثلاث جمل فعلية ماضية على النحو الآتي: ((فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَنَشَرَ الرِّيَاحَ بِرَحْمَتِهِ، وَوَتَّدَ بِالصُّخُوْرِ مَيَدَانَ أَرْضِهِ))

لبيان أمور، منها: الكشف عن قدرة الله في أبداع الخلق باستعمال الفعل (فطر) الذي يدل على ابتداء الأمر٨ وبروزه٩، وثانيها: بيان حكمة الله في تدبير الخلق، وثالثها: إقامة الدليل على الخالق بما ظهر من دلائل قدرته بإيجاد الخلق، وهي كلها ضمن التوحيد الأفعالي. وقد مثل هذا المقطع النتيجة للمقاطع السابقة، وجوابا لمن يسأل عن الدليل على وجود الإله الذي تقدم ذكره وحمده.

لقد كانت مقدمة الخطبة عالية النسج، بيّنة الدلالة، صاغها الإمام عليه السلام بصياغة متينة، وبقصدية١٠ واضحة، وبأسلوب عقليٍ محكمٍ متسلسلٍ، يفضي السابق منه إلى اللاحق، ويكون التالي تعليلًا وبيانًا لما قبله، لتكون مفتتحًا لخطبته التي فصّل فيها ما أجمله في مقدمتها.

المبحث الثاني

العرض

يشكل العرض صلب الخطبة وموضوعها، وتظهر فيه قدرة الخطيب في الإحاطة بموضوعه من غير إسهاب ممل، او اختصار مخل، على وفق آليات بنائية، وإمكانيات إلقائية تستملك عقول المتلقين، وتستأثر بأسماعهم، وتتناغم وعواطفهم أو توجهها إلى حيث يسيّرها الخطيب.

وقد جاء العرض في خطبة الإمام عليه السلام يحوي الموضوعات التي أجملت في المقدمة، على النحو الآتي: التوحيد الذاتي، والتوحيد الأفعالي، وزاد عليها: بعثة الأنبياء، والقرآن والتشريع، وهي أيضا تصب في الموضوعين السابقين في إطار (نمو الموضوعات) على نحو ما سنراه عند استعراضنا لها.

أ-التوحيد الذاتي: يبدأ هذا الموضوع بقول الإمام عليه السلام: ((أَوَّلُ الدِّيْنِ مَعْرِفَتُهُ)) إلى ((وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِه))١١ ، ويتضمن ثلاثة مقاطع:

أولها قوله عليه السلام: ((أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمَالُ مَعْرِفَتِه التَّصْدِيقُ بِهِ وَكَمَالُ التَّصْدِيقِ بِه تَوْحِيدُهُ، وَكَمَالُ تَوْحِيدِه الْإِخْلَاصُ لَهُ، وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمَوْصُوفِ، وَ شَهَادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ)).

بُني هذا المقطع على نحو هرميٍّ قاعدته ((أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ))، ليعلو في بناء متصاعد قمته ((وَكَمَالُ الْإِخْلَاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ))، مستثمرًا أسلوب العطف

في تصاعد الدلالة من قاعدة الهرم إلى قمته، وليكشف عن تدرج المعرفة في مراحل الإيمان من الاعتقاد بوجود خالق لهذا الكون إلى إخلاص الوحدانية له، محدداً لكل مرحلة بدايةً تنطلق منها، وكمالًا يهيِّئ لمرحلة أعلى على نحو من التشابك وصولًا إلى القمة١٢.

ثم يبين عليه السلام ما يبطل كل مرحلة من مراحل الإيمان في المقطع الثاني بقوله: ((فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ، وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ ثَنَّاهُ، وَمَنْ ثَنَّاهُ فَقَدْ جَزَّأَهُ، وَمَنْ جَزَّأَهُ فَقَدْ جَهِلَهُ، وَمَنْ جَهِلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ قَالَ فِيمَ فَقَدْ ضَمَّنَهُ، وَمَنْ قَالَ عَلَا مَ فَقَدْ أَخْلَى مِنْه))١٣، مستثمرا مع العطف أسلوب الشرط الذي يلزم منه تحقق الجزاء بتحقق الشرط، وليحدد مسار السقوط من قمة الهرم إلى الهاوية عبر ثنائيات متضادة متنافرة ترتسم في الذهن على النحو الآتي:

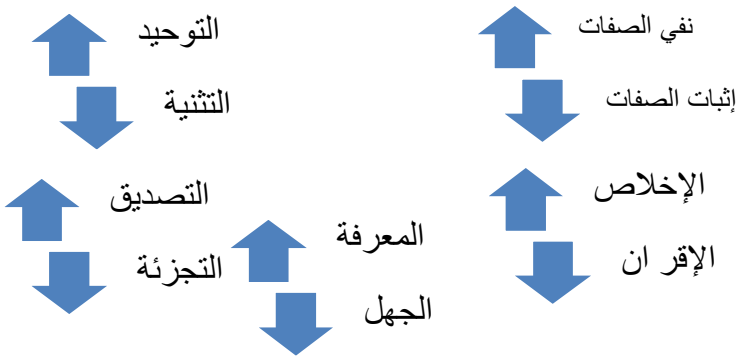

ثم جعل من لوازم الجهل الإشارة إليه، وحدّه، وعدّه، والسؤال عنه بـ (فيم ،علام).

أما المقطع الثالث فقوله عليه السلام: ((كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ، مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ، مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ، وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةٍ، فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالْآلَةِ، بَصِيرٌ إِذْ لَا مَنْظُورَ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَوَحِّدٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ))١٤.

وقد جاء ليختم به موضوع خطبته الأول (التوحيد الذاتي)، فبعد أن بيّن في المقطعين السابقين طريق الوصول إلى توحيد الله توحيداً خالصًا بنفي صفات المخلوقين عنه، بيّن في هذا المقطع كيفية تجريد الصفات عما لا يليق بالذات المقدسة، موظفا أسلوبًا جديداً بالنفي بعد الإثبات، فقد أثبت الصفات التي لا بدّ للإنسان من أن يجيلها في خاطره وهو يبحث عن توحيد الله، ونفى عنها كل ما يجعلها شبيهة بصفات المخلوقين، موظفًا جملًا اسمية تبدأ بأخبار حذف مبتدأها١٥ للإشارة إلى أمرين، أولهما: التعظيم، وثانيهما: بيان أن البحث عن الله والتعرف عليه يبقى قائما لا يستوعبه الكلام والوصف، فهو الذي ((لَا يَبْلُغُ مِدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ)).

أما الصفات التي ذكرها فهي: (كائن، موجود، مع كل شيء، غير كل شيء، فاعل، بصير، متوحّد)، وقد ميّز آخر صفتين بأن جعل النفي فيهما للجنس في جملة الظرف (إذ)؛ لنفي تعلق الصفة بجملة الظرف، لأن البصير يتحقق بوجود المُبْصَر، والمتوحّد يتحقق بوجود الآخر، ونفيهما على نحو ما فعل الإمام عليه السلام نفي للصفة عن شبه المخلوقين، فكونه –سبحانه- بصيرًا لا تعلق لها بوجود المُبصَر، فهو بصير بذاته سواء وُجِد مُبصَر أم لم يوجد، ومثل ذلك يقال عن صفة (متوحّد). وقد جاءت الصفات التي ذكرها جميعا في جملٍ اسميّةٍ؛ لدلالتها على الثبوت والدوام١٦.

ب- التوحيد الأفعالي: وهو يشمل معظم الخطبة، ويبدأ بقوله عليه السلام: ((أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً)) إلى قوله: ((وَالْمَسَاءَةِ وَالسُّرُورِ))، و يتضمن عدّة فِقَرٍ تصف عملية الخلق بتسلسلٍ منطقيٍّ يشير إلى تراتبٍ زمنيٍّ، في تراكيب جملية فعلية ماضية؛ كونها أكثر أتساقًا مع التوحيد الأفعالي الذي أسّه الخلق والإيجاد١٧، يبدأها بمقدمة عن طبيعة الإنشاء وماهيته بقوله عليه السلام: ((أَنْشَأَ الْخَلْقَ إِنْشَاءً، وَابْتَدَأَهُ

ابْتِدَاءً، بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، وَلَا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا، وَلَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا، وَلَا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا))١٨.

فالبدء بالفعل الماضي (أَنْشَأَ) المؤكد بمصدره والدالّ على ((إيجاد الشيء وتربيته))١٩ ، يشير إلى الحكمة في الإنشاء، وأعقبه مباشرة بجملة شبيهة بها من حيث تركيبها لتركيز الدلالة في الذهن، وفصّل بعد ذلك ماهية هذا الإنشاء بأنه ((بِلَا رَوِيَّةٍ أَجَالَهَا، وَلَا تَجْرِبَةٍ اسْتَفَادَهَا، وَلَا حَرَكَةٍ أَحْدَثَهَا، وَلَا هَمَامَةِ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا)) مقسّمًا إياه قسمين:

الأول: الإعداد للإنشاء. والثاني: آلية الإنشاء. مصنّفًا كل قسم على صنفين يشملان ما يمكن أن يتصور فيه، فالإعداد إما أن يكون بتقليب الفكرة في الذهن لدراسة أبعادها، أو بالاستفادة من تجارب الآخرين، أو هما معا. والآلية إما أن تكون بالحركة أو بهمامة النفس، وكل ذلك من صفات المخلوقين، وكان نصيب كل ذلك النفي لبيان تعالي الخالق –سبحانه– عن هذه الصفات.

يقول ابن ميثم البحراني: ((و إذ ليس إيجاده – تعالى– للعالم على أحد الأنحاء المذكورة فهو إذن بمحض الاختراع و الإبداع البريء من الحاجة إلى أمر من خارج ذاته المقدّسة ((بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))٢٠ ، فاعلم أنّه (عليه السلام)أردف كلّا من هذه الامور بما هو كيفيّة في وجوده فأردف الرويّة بالإحالة و التجربة بالاستفادة و الحركة بالإحداث و الهمامة بالاضطراب لتنتفي الكيفيّة بانتفاء ما هى له عن ذاته المقدّسة))٢١.

وجاء المقطع الثاني مكملًا لما سبقه بقوله عليه السلام: ((أَجَالَ الْأَشْيَاءَ لِأَوْقَاتِهَا، وَلَاءَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا، وَغَرَّزَ غَرَائِزَهَا، وَأَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا، عَالِماً بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا، مُحِيطاً بِحُدُودِهَا وَانْتِهَائِهَا، عَارِفاً بِقَرَائِنِهَا وَأَحْنَائِهَا))٢٢، ليبيّن فيه أن حكمة الإنشاء لا تكون دفعة واحدة، وأن كل شيءٍ محدود بأجل يبتدأ به، وآخر ينتهي إليه مع العلم التام بكل تفاصيله٢٣.

وابتدأ المقطعين الثالث والرابع بـ (ثمّ أنشأ) استكمالًا لما بدأه من ذكر الإنشاء، وخصصهما لخلق الماء في أولهما، والسماء في الآخر، مبيّنًا أن عملية الخلق تمّت على

مراحل مستفيداً من دلالة (ثمّ) على التراخي٢٤. وختمهما بمقطع ثالث بيّن فيه خلق الكواكب وجعلها زينة، وخلق الشمس والقمر وحركتها في أفلاكها بقوله عليه السلام: ((ثُمَّ زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَضِيَاءِ الثَّوَاقِبِ، وَأَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً، وَقَمَراً مُنِيراً، فِي فَلَكٍ دَائِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ)).

فلفظة (أجرى) تدل على الحركة، وقد قيد عليه السلام الكواكب والشمس والقمر بالدوران وعدم التوقف حين جعل جريانها ((فِي فَلَكٍ دَائِرٍ، وَسَقْفٍ سَائِرٍ، وَرَقِيمٍ مَائِرٍ)).

وجاء المقطع الذي بعده ليكشف عن خلق الملائكة وملء السماوات بهم واصفًا حالاتهم بقوله: ((مِنْهُمْ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ، وَرُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ، وَصَافُّونَ لَا يَتَزَايَلُونَ، وَمُسَبِّحُونَ لَا يَسْأَمُونَ، لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعُيُونِ، وَلَا سَهْوُ الْعُقُولِ، وَلَا فَتْرَةُ الْأَبْدَانِ، وَلَا غَفْلَةُ النِّسْيَانِ))٢٥، ومهامهم بقوله: ((وَ مِنْهُمْ أُمَنَاءُ عَلَى وَحْيِهِ، وَأَلْسِنَةٌ إِلَى رُسُلِهِ، وَمُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَأَمْرِهِ، وَمِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ، وَالسَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جِنَانِهِ))٢٦ ، وأشكالهم بقوله: ((وَمِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرَضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ، وَالْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ، وَالْخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ، وَالْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ، نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ، مُتَلَفِّعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ، مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ، وَ أَسْتَارُ الْقُدْرَةِ))٢٧، وجميعهم ((لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ، وَلَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ، وَلَا يَحُدُّونَهُ بِالْأَمَاكِنِ، وَلَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ))٢٨، وهو التوحيد الخالص.

ويأتي المقطع الآخر ليبيّن خلق بني آدم ممثلًا بخلق أبيهم من الطين وهو مقطع طويل نسبيًا يجري على النحو الآتي: ((ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ وَ سَهْلِهَا، وَ عَذْبِهَا وَ سَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بِالْمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَ لَاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاءٍ وَ وُصُولٍ، وَ أَعْضَاءٍ وَ فُصُولٍ، أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَ أَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْتٍ مَعْدُودٍ، وَ أَجَلٍ مَعْلُومٍ، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْسَاناً ذَا أَذْهَانٍ يُجِيلُهَا، وَ فِكَرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَ جَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَ أَدَوَاتٍ يُقَلِّبُهَا، وَ مَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ، وَ الْأَذْوَاقِ وَ الْمَشَامِّ وَ الْأَلْوَانِ وَ

الْأَجْنَاسِ، مَعْجُوناً بِطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَ الْأَشْبَاهِ الْمُؤْتَلِفَةِ، وَ الْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ، وَ الْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ، مِنَ الْحَرِّ وَ الْبَرْدِ وَ الْبَلَّةِ وَ الْجُمُودِ وَالْمَسَاءَةِ وَالسُّرُورِ)).

وقد استعمل عليه السلام في وصف عملية خلق الإنسان الأفعال الماضية (جمع، ، وسنّ، ولاط، وجبل، وأجمد، وأصلد، نفخ، مَثَل)، ولما انتقل إلى وصف الإنسان استعمل الأفعال المضارعة (يجيل، يتصرّف، يختدم، يقلب، يفرق)، لدلالة المجموعة الأولى على الانتهاء من عملية الخلق؛ كونها وقعت في زمن بعيد، ودلالة المجموعة الثانية على الحدوث والتجدد كونها؛ الآليات التي يستعملها الإنسان في كل وقت وزمان.

واستكمل المقطع ببيان تكريم الله -سبحانه- لآدم عليه السلام وذريته بسجود الملائكة له، واستكبار إبليس وقبيله -لعنهم الله- عن الاستجابة لأمره تعالى، وإنظاره لهم ((إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ))٢٩، ثمّ إسكان آدم وزوجته الجنة، وما جرى من اغترارهما بكلام عدوّهما، ((ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ، وَ لَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ، وَ وَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَى جَنَّتِهِ، وَ أَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وَ تَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ))٣٠.

ج- بعث الأنبياء: ويأتي بعده مقطع آخر يذكر فيه عليه السلام بعث الأنبياء، وجعل العلّة فيه تبديل أكثر الخلق عهد الله إليهم٣١، وبيّن أن وظيفة الأنبياء في الخلق ((لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَ يُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَ يَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَ يُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَ يُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ، مِنْ سَقْفٍ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ، وَ مِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ، وَ مَعَايِشَ تُحْيِيهِمْ، وَ آجَالٍ تُفْنِيهِمْ، وَ أَوْصَابٍ تُهْرِمُهُمْ، وَ أَحْدَاثٍ تَتَابَعُ عَلَيْهِمْ))٣٢، وأن الله -سبحانه- لم يُخْلِ خلقه ((مِنْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ، أَوْ مَحَجَّةٍ قَائِمَةٍ، رُسُلٌ لَا تُقَصِّرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ، وَ لَا كَثْرَةُ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ، مِنْ سَابِقٍ سُمِّيَ لَهُ مَنْ بَعْدَهُ، أَوْ غَابِرٍ عَرَّفَهُ مَنْ قَبْلَهُ، عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ، وَ مَضَتِ الدُّهُورُ، وَ سَلَفَتِ الْآبَاءُ، وَ خَلَفَتِ الْأَبْنَاءُ))٣٣.

ثمّ يختم بعثة الأنبياء (عليهم السلام) بذكر بعثة سيدهم الخاتم محمد (صلى الله عليه وآله)، وأنه خلّف في أمته ((مَا خَلَّفَتِ الْأَنْبِيَاءُ فِي أُمَمِهَا؛ إِذْ لَمْ يَتْرُكُوهُمْ هَمَلًا، بِغَيْرِ طَرِيقٍ وَاضِحٍ، وَ لَا

عَلَمٍ قَائِمٍ))٣٤، وقد جاء ذكر الأنبياء (صلوات الله عليهم) دليلًا وشاهدًا على وحدانية الله -سبحانه-، كونهم الأدلاء في طريق معرفته٣٥.

د- القرآن والأحكام الشرعية: أوضح الإمام عليه السلام أن كتاب الله هو مما خلّفه رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أمته، وقد بيّن ((حَلَالَهُ وَ حَرَامَهُ، وَ فَرَائِضَهُ وَ فَضَائِلَهُ، وَ نَاسِخَهُ وَ مَنْسُوخَهُ، وَ رُخَصَهُ وَ عَزَائِمَهُ، وَ خَاصَّهُ وَ عَامَّهُ، وَ عِبَرَهُ وَ أَمْثَالَهُ، وَ مُرْسَلَهُ وَ مَحْدُودَهُ، وَ مُحْكَمَهُ وَ مُتَشَابِهَهُ، مُفَسِّراً جُمْلَهُ، وَ مُبَيِّناً غَوَامِضَهُ))٣٦، وقد أعطت الثنائيات المتقابلة زخمًا دلاليًّا للنص.

وجاء ذكر الأحكام الشرعية إجمالًا في قوله عليه السلام: ((بَيْنَ مَأْخُوذٍ مِيثَاقُ عِلْمِهِ، وَ مُوَسَّعٍ عَلَى الْعِبَادِ فِي جَهْلِهِ، وَ بَيْنَ مُثْبَتٍ فِي الْكِتَابِ فَرْضُهُ، مَعْلُومٍ فِي السُّنَّةِ نَسْخُهُ، وَ وَاجِبٍ فِي السُّنَّةِ أَخْذُهُ، مُرَخَّصٍ فِي الْكِتَابِ تَرْكُهُ، وَ بَيْنَ وَاجِبٍ بِوَقْتِهِ، وَ زَائِلٍ فِي مُسْتَقْبَلِهِ، وَ مُبَايَنٍ بَيْنَ مَحَارِمِهِ، مِنْ كَبِيرٍ أَوْعَدَ عَلَيْهِ نِيرَانَهُ، أَوْ صَغِيرٍ أَرْصَدَ لَهُ غُفْرَانَهُ، وَ بَيْنَ مَقْبُولٍ فِي أَدْنَاهُ مُوَسَّعٍ فِي أَقْصَاهُ))٣٧، في دلالة على لطف الله بعباده؛ إذ كرمهم ببيان الأحكام لهم، وهو يشير من طرف خفيّ إلى إحاطته بالأحكام وتفاصيلها، وليهيئ بها الدخول إلى ختام خطبته عليه السلام في إفراد الحج بالحديث.

المبحث الثالث

الختام

أما ختام الخطبة فقد جاء متساوقًا مع كل ما تقدم فيها من الحديث عن التوحيد، فقد خصصه الإمام عليه السلام للحديث عن الحج الذي هو من أجلى مظاهر توحيد الله وعبادته، وفي بيان ذلك يقول ابن ميثم البحراني: ((وضعه – البيت الحرام- على مثال حضرة الملوك يقصده الزوّار من كلّ فجّ عميق شعثا غبرا متواضعين لربّ البيت مستكينين له خضوعا لجلاله واستكانة لعزّته مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه مكان ليكون ذلك أبلغ في رقّهم وعبوديّتهم، ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالا لا تأنس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجمار بالأحجار والتردّد بين الصفا

والمروة على سبيل التكرار، وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرّق والعبوديّة بخلاف سائر العبادات))٣٨.

وقد أورد الإمام الحديث عنه بثلاث فقَر، خصّ الأولى منها بالحديث عن فرض الحج بقوله عليه السلام: ((وَ فَرَضَ عَلَيْكُمْ حَجَّ بَيْتِهِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلَهُ قِبْلَةً لِلْأَنَامِ يَرِدُونَهُ وُرُودَ الْأَنْعَامِ وَ يَأْلَهُونَ إِلَيْهِ وُلُوهَ الْحَمَامِ))، أما الثانية فكانت تبين أن الله –سبحانه– جعل الحج علامة لتواضع عباده لعظمته وإذعانهم لعزته بقوله عليه السلام: ((وَ جَعَلَهُ سُبْحَانَهُ عَلَامَةً لِتَوَاضُعِهِمْ لِعَظَمَتِهِ وَ إِذْعَانِهِمْ لِعِزَّتِهِ وَ اخْتَارَ مِنْ خَلْقِهِ سُمَّاعاً أَجَابُوا إِلَيْهِ دَعْوَتَهُ وَ صَدَّقُوا كَلِمَتَهُ وَ وَقَفُوا مَوَاقِفَ أَنْبِيَائِهِ وَ تَشَبَّهُوا بِمَلَائِكَتِهِ الْمُطِيفِينَ بِعَرْشِهِ يُحْرِزُونَ الْأَرْبَاحَ فِي مَتْجَرِ عِبَادَتِهِ وَ يَتَبَادَرُونَ عِنْدَهُ مَوْعِدَ مَغْفِرَتِهِ))٣٩ ، وفي الفقرة الثالثة بيّن أن البيت الحرام جعله الله ((لِلإِسلام عَلَماً، وَ لِلْعَائِذِينَ حَرَماً، فَرَضَ حَجَّهُ، وَ أَوْجَبَ حَقَّهُ، وَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ وِفَادَتَهُ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ﴾٤٠))٤١.

ويبدو لي أن ختام الخطبة بذكر الحج دون غيره من الأحكام الشرعية التي أُجمِل بيانها يلمح إلى أحد أمرين:

الأول: أن الخطبة قيلت في موسم الحج، أو قبله قريبًا منه، فاستوجب إفراده بالذكر للتنبيه إليه، والحث عليه.

الثاني: أن الحج يمثل أجلى مظاهر توحيد الخالق، لاجتماع المسلمين من كل أصقاع الدنيا، متخلّين عن المال والأهل والولد؛، وملقين وراءهم متاع الدنيا؛ تلبيةً لنداء خالقهم العظيم، وتعظيمه وعبادته.

وبنهاية الحديث عن الحج يختتم الأمام عليه السلام خطبته، بعد أن صاغها صياغة محمكة، في بنية متصاعدة متشابكة يفضي سابقها إلى لاحقه، بعد أن استهلّها بمقدمة أجمل فيها المطالب التي رام الحديث عنها في خطبته، ثم فصل المجمل في عرض الخطبة، لينتهي بخاتمة تكشف عن اتساق تام مع مضامين الخطبة التي كانت نسيجًا واحدًا متنوع المضامين.

الخاتمة

أثمر البحث ثمارًا يانعةً حان قطافها على النحو الآتي:

أ- الخطبة عند أمير المؤمنين عليه السلام نسيج متكامل، محكم السبك، متشابك المضامين.

ب- تضمنت مقدمة الخطبة إجمال الموضوعات التي أراد الإمام عليه السلام الحديث عنها، وقد جعلها في أربع مقاطع يكون اللاحق منها بمثابة تعليل للذي قبله.

ت- جاء العرض ليفصل الإجمال في مستهل الخطبة، وقد فصل فيه الحديث عن التوحيد الذاتي والتوحيد الأفعالي.

ث- بدا الحديث في التوحيد الذاتي هرمي الشكل، يبدأ بقاعدة عريضة هي المعرفة، وينتهي بالقمة التي خصصت لنفي صفات المخلوقين عنه -سبحانه-.

ج- كانت الخاتمة متسقة تمامًا مع موضوعات الخطبة في الحديث عن التوحيد، فذكرت الحج الذي يمثل أبرز مظاهر التوحيد في الإسلام.

لقد بنيت خطب النهج بناء هندسيا محكما، مبتدئا بالاستهلال فالعرض فالختام، وقائما على ترابط دلالي دقيق ينم على وعي تام بأهمية الخطاب وأثره في المتلقي، على الرغم من أنّ كثير من الخطب جاءت مقطعة، أو اختار منها الشريف الرضي مقاطع قلّت أو كثُرت، غير أننا نلمس في مجملها إحكامًا في النسج والبناء، ولعلّه يتضح أكثر فيما جاءت مكتملة من الخطب، أو شُبه مكتملة.

وقد رصد البحث بنية الخطب التوحيدية مثالا لما عليه سائر الخطب من الإحكام في بنائها بما يمثل بعدا أسلوبيا جرى عليه كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) للوصول إلى الغاية المتوخاة منها، وركّز القول في الخطبة الأولى من نهج البلاغة؛ كونها تتضح فيها معالم البنية من مقدمة فعرض فختام، وهي بعدُ كاشفة عما سواها من خطب التوحيد.

وقد انتظم البحث في ثلاثة مباحث، تحدث أولها عن مقدمة الخطبة بما تحفل من قوة، وبما تتضمن من إشارات بيِّنة للمناسبة التي قيلت فيها الخطبة، ثم جاء بعده المبحث الثاني ليكشف عن أسلوب الإمام علي (عليه السلام) في عرضه للمضامين التي

يتوخاها من خطبته. أما المبحث الثالث فقد تكفل ببيان بنية الختام لما لها من أهمية في تركيز ما جاء في العرض من مضامين. ولا ريب في أن خاتمة البحث بينت الثمار المنتقاة منه.

Abstract

The speech of Nahjul-Balagha had been put with acohesive geometric structure, starting with the preface and followed by the presentation and the conclusion, basing on a precise semantic connection revealing the awareness of the speech importance and its effect on the receiver. Most of the speech are separated; Al-shereef Al-Redhy had chosen pieces or sections of them, yet they are all coherent and cohesive.

The research studies the monotheistic speeches' structure as example for the other speeches structure which represented a stylistic dimension for the speech of Ameerul-Mo'emineen (P.U.H.) to achieve the aims of the speech. The research focuses the first speech of Nahjul-Balagha because it carries the structure features:preface, presentation and conclusion and because it paves the way for the following monotheistic speeches.

The research includes three topics: the first deals with the speech preface or introduction with its strength and clear reference to its occasion, the second reveals the style of Imam Ali (P.U.H.) in exhibiting(presenting) the topics of his speech, and the third chapter is devoted to the conclusion structure due to its importance in summarizing the presentation topics.

The conclusion of this research shows its most important results.

هوامش البحث

١- ينظر: البيان والتبيين ، الجاحظ، تح: المحامي فوزي عطوي، ط١، دار صعب، بيروت ١٩٦٨، ٢١٥/١. وعيون الأخبار، ابن قتيبة ٢٦٣/٢. المفردات، والراغب الأصفهاني ٣٦.

٢- مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود البستاني، ط١، مطبعة مهر، قم ١٣٨١ هـ ش، ٩٦.

٣- ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله الحموي الأزري، تح: عصام شعيتو، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٧، ٤٠/١.

٤- نهج البلاغة ٤٥.
٥- التوحيد الذاتي معناه: أن الله واحد لا نظير له، وأنه بسيط غير مركب. ينظر: رسائل ومقالات، جعفر السبحاني ١٦.
٦- التوحيد الأفعالي معناه: أن لا خالق في الكون إلا هو. ينظر: المصدر السابق.
٧- بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، محمد تقي التستري ١٥٠/١.
٨- ظ: لسان العرب مادة (فطر)٥٥/٥.
٩- ظ: معجم مقاييس اللغة مادة (فطر).
١٠- يراد بالقصدية: ((اتجاه منتج النص إلى أن تؤلف مجموعة الوقائع نصًا متضامًا متقارنًا ذا نفع عملي في تحقيق مقاصده، أي نشر معرفة، أو بلوغ هدف يتعين من خلال خطة ما)) مدخل إلى علم النص، دي بوجراند وآخران، ط١، مطبعة القاهرة، ٣٠.
١١- نهج البلاغة ٤٥-٤٦.
١٢- ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٧٣/١-٧٥. وشرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني ١/ ١١٩-١٢٠.
١٣- نهج البلاغة ٤٦.
١٤- م.ن.٤٦.
١٥- يقول عبد القاهر الجرجاني عن حذف المبتدأ: ((ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف يبدأون بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلامًا آخر وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ)) دلائل الإعجاز ١١٣. ويقول ابن هشام: إن حذف المبتدأ يكثر في أمور منها ما يكون الخبر فيه صفة للمبتدأ في المعنى، ينظر: مغني اللبيب ٤٠٣/٢.
١٦- ينظر: موسوعة النحو والصرف والإعراب، د. أميل بديع يعقوب ٣٢٧.
١٧- ((تفيد الجملة الفعلية التجدد والحدوث في زمن معيّن)) المصدر السابق.
١٨- نهج البلاغة ٤٦.
١٩- مفردات القرآن للراغب الأصفهاني مادة (نشأ).
٢٠- سورة البقرة ١١٧.
٢١- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني ١٣٥/١.
٢٢- نهج البلاغة ٤٦-٤٧.
٢٣- ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٨١/١.

٢٤- ينظر: مغني اللبيب ٢٢٩/١.
٢٥- نهج البلاغة ٤٨.
٢٦- م.ن. ٤٨.
٢٧- م.ن. ٤٨.
٢٨- م.ن. ٤٨-٤٩.
٢٩- الحجر ٣٨.
٣٠- نهج البلاغة ٥٠.
٣١- ظ: م.ن. ٥٠.
٣٢- م.ن. ٥١.
٣٣- م.ن. ٥١.
٣٤- م.ن. ٥٢.
٣٥- ينظر: شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني ٢٢٢/١-٢٢٣.
٣٦- نهج البلاغة. ٥٢.
٣٧- م.ن. ٥٢-٥٣.
٣٨- شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحراني ٢٢٧/١.
٣٩- م.ن. ٥٣.
٤٠- آل عمران٩٧.
٤١- نهج البلاغة ٥٣.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.
٢- بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة، محمد تقي التستري، ط١، دار أمير كبير للنشر، طهران ١٤١٨ه.
٣- البيان والتبيين ، أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥ه)، تح: المحامي فوزي عطوي، ط١، دار صعب، بيروت ١٩٦٨.
٤- خزانة الأدب وغاية الأرب، تقي الدين أبو بكر علي بن محمد، المعروف بـ(ابن حجة الحموي) الأزري (ت ٨٣٧ه)، تح: عصام شعيتو، ط١، دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٧.

٥- دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت٤٧١ه)، صحح أصله محمد عبده، ومحمد محمود التركزي الشنقيطي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، دت.
٦- رسائل ومقالات، جعفر السبحاني، ط١، مطبعة اعتماد، قم ١٤١٩ه.
٧- شرح نهج البلاغة، عز الدين ابو حامد عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني (ت٦٥٦ه)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٨ه-١٩٥٩م.
٨- شرح نهج البلاغة، كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني (ت٦٧٩ه)، عُني بتصحيحه مجموعة من الأفاضل، ط٢، ١٤٠٤ه، دط.
٩- عيون الأخبار، ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦ه)، شرحه وضبطه وعلّق عليه الدكتور يوسف علي طويل، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٢٣ه- ٢٠٠٣م.
١٠- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري(ت٧١١ه)، الناشر أدب الحوزة، قم – إيران، ١٤٠٥ه.
١١- مختصر تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، د. محمود البستاني، ط١، مطبعة مهر، قم ١٣٨١ هـ ش.
١٢- مدخل إلى علم النص، دي بوجراند وآخران، ط١، مطبعة القاهرة.
١٣- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريّا (ت٣٩٥ه)، تح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤ه.
١٤- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، قدّم له ووضع حواشيه وفهارسه حسن حمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤١٨ه-١٩٩٨م.
١٥- المفردات، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت٥٠٢ه)، ط٢، ١٤٠٤ه، دط.
١٦- موسوعة النحو والصرف والإعراب، د. أميل بديع يعقوب، ط١، مطبعة عترت، ١٤٣٨ه ش-٢٠٠٥م.
١٧- نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب (ت٤٠ه)، اختاره وجمعه الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى (ت٤٠٦ه)، ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلمية الدكتور صبحي الصالح، الناشر دار الهجرة، قم – إيران.